المنهج الموضوعي في التفسير

دراسة وتطبيق

بقلم

الأستاذ الدكتور/ مسعود أحمد أبو طالب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالكلية

تمهيد :

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، على خاتم رسله سيدنا محمد ﷺ وأمره بتبليغه فقال : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » .. (١)

كما عهد إليه بتبيينه للناس ، ليتفكروا فيما أنزل إليهم من ربهم ، حتى يهتدوا إلى حقيقة وجوب إيمانهم بربهم وخالقهم ، وتصديقهم برسالة خاتم رسله ، ويقينهم بما يجب اليقين به ، والعمل بمقتضاه على هدى وبصيرة فقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (٢)

وقد قام ﷺ بما أمر به ، وعهد إليه . فبلغ ما أنزل إليه من ربه ، وبين للناس ما نزل إليهم ، وكانت سنته ﷺ ، بكل جهاتها وجوانبها ، تفصيلا لما جاء في القرآن ، من مختلف مجمل القضايا والأحكام ، التي أنزلها الله وهدى الناس إليها ، في كتابه الحكيم .

فجزاه الله تعالى عن أمته ، أفضل ما جزى به نبيا عن أمته ، ورسولا إلى قومه ، وإلى الناس كافة .

« ثم قام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، بعد رسول الله ﷺ بنقل ما تلقوه منه ، وما سمعوه ، وما شاهدوه ، على إيمان وعلم ، وكانت لهم مدارس يلتقون فيها على مدارسة كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأشهر هذه المدارس :

مدرسة : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بمكة المكرمة . وكان من أشهر أتباعها من التابعين .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة

(٢) الآية ٤٤ من سورة النحل .

سعيد بن جبير ، وطاوس بن كيسان اليمانى .

ومجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح .

وعكرمة مولى بن عباس .

ومدرسة : أبى بن كعب ، رضى الله عنه — بالمدينة المنورة .

ومن أشهر أتباعها كذلك .

أبو العالية رفيع بن مهران .

ومحمد بن كعب القرظى .

وزيد بن أسلم .

ومدرسة : عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه بالعراق .

ومن أتباعها النابغين .

علقمة بن قيس ، وعامر بن شراحبيل الشعبى

ومسروق بن الأجدع ، والحسن البصرى

والأسود بن يزيد ، وقتادة بن دعامة السدوسى

ومرة بن شراحبيل الهمدانى

* وبعد عصر الصحابة ، قام التابعون بمهمة التفسير ، وقد زادت الحاجة إليه ، بزيادة رقعة الإسلام ، ودخول كثير من غير العرب ، فى دين الله — ولم يكن التفسير إذ ذاك مدونا ، ولكنه كان ينقل بطريق التلقى والرواية ، فالصحابة ، يروون عن رسول الله ﷺ ، كما يروى بعضهم عن بعض ، والتابعون يروون عن الصحابة ، كما يروى بعضهم عن بعض وهكذا .

* ثم خطا التفسير بعد عصر التابعين ، خطوة نحو التدوين ، حيث

ابتدأ التدوين و الجمع ، لحديث رسول الله ﷺ ، وجمع المأثور من التفسير معه ، دون فصل بينها ، أو استقلال لأحدهما عن الآخر .

فلما نشطت حركة التدوين فى القرن الثالث الهجرى ، فصل التفسير عن الحديث ، وأصبح علما قائما بنفسه ، مستقلا بذاته ومأثوراته المروية بالإسناد المتصل ، على يد طائفة من الأئمة الأعلام ومنهم :

ابن ماجة ، وابن جرير الطبرى ، وأبو بكر النيسابورى . وابن أبى حاتم ، وابن حبان وغيرهم من علماء القرن الثالث والرابع الهجرى[1] .

* ومضت عجلة الزمن ، وتبع هؤلاء الأئمة الأعلام ، خلائق ألفوا فى التفسير ، ولكنهم اختصروا أسانيده ، ونقلوا مأثوراته بترا ، دون أن ينسبوها لقائليها ، مما كان له أعظم الخطر فى دخول الدخيل فى كتب التفسير ومؤلفاته .

وجاء من نقل ذلك عنهم دون تحر للصواب ، غير ملتفت إلى تحرير ماورد عن السلف الصالح ، ومن يرجع إليهم فى التفسير ، وتعددت الأقوال فيما لاقول فيه لأحد ، لورود النص القاطع بالمراد .

ثم بدا الفهم العقلى ، والاجتهاد الشخصى ، فى الكشف عن معانى الآيات ، واختلط ذلك بالمأثور فى التفسير . وتدرج هذا الاجتهاد شيئا فشيئا . حتى غلبت السمة العقلية ، على السمة النقلية ، فيما جد وظهر من التفاسير ، التى اختلفت مناهجها ، وتنوعت مباحثها ومسائلها ، المنبثة عن

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى جـ١ ص ١٤١

مشارب أهلها ، ورغباتهم ،ونزعاتهم ، التى ينزعونه إليها ، فى تفسير آيات كتاب الله العزيز[1] .

ومما جد من هذه المناهج « المنهج الموضوعى فى التفسير »

وهو حديثنا فى هذا المبحث الذى نقدمه متبوعا بذكر فائدة درسه ، ومشفوعا بموضوع ، من موضوعاته التى تعددت وتنوعت فى ذكرها الآيات ، تبيانا وبراهانا هاديا لأهمية درسه ، إسهاما منا فى هذا العمل العلمى ، والله تعالى أسأل أن يبصرنا بالحق ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يتقبل منا عملنا هذا ، إنه سميع مجيب .

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٤ ص ٢١٢ والتفسير والمفسرون الدكتور محمد حسين الذهبى جـ١ ص ١٤٦

المنهج الموضوعى فى التفسير

تعريفه : هو المنهج الذى يجمع فيه المفسر الآيات القرآنية المتنوعة ذات الموضوع الواحد ، أو القضية الواحـــدة ، من مختلف مواضع ذكرها فى القرآن ، ليبين معناها ، ويكشف عن وحدتها وارتباطها بسياقها ولحاقها، ويستجلى مقاصدها وأهدافها السكلية ، فى عبارة واضحة، وأسلوب محكم ، لاسترسال فيه ولا إيجاز ، يخل بعموم معانى جملة هذه الآيات .

والاتجاه إلى تفسير آيات القرآن، على هذا النحو الموضوعى، وجعله مادة دراسية منهجية لطلاب العلم ، والمتخصصين منهم ، اتجاه حديث ،رآه ذو والاختصاص فى الدراسات القرآنية ، لماله من الأهمية والفائدة ، التى تتجاوز حدود الدارسين .

ومع أن الاتجاه إليه اتجاه حديث ، إلا أننا نرى جانبا من سماته لدالة عليه ، والمتعلقة بخصائصه ، فى أمهات كتب التفسير ، لأئمة هـذا الشأن وأعلامه ، ونذكر من هذه الأمهات .

« تفسير القرآن العظيم » للإمام :أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى. المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة.

فقد عرض فيه رحمه الله ،عند تفسيره للاية القرآنية ، التى هو بصدد تفسيرها ، إلى ذكـــر نظائرها ، فى مختلف مواضع ذكرها فى القرآن ، استهداء بها فى توضيح المعنى ، أو تفصيله بعد إجماله، أو تقييده بعد إطلاقة ، أو تخصيصه بعد عمومه ، أو نسخه لما سبق نزوله ، ونحو ذلك مما يعد ذكره من سمات وخصائص المنهج الموضوعى فى التفسير ، وتلك حقيقة لاتخفى على ذوى هذا الاختصاص .

و « التفسير الكبير ، ومفاتيح الغيب » للإمام: فخر الدين محمد الرازى المتوفى سنة ست وستمائة من الهجرة .

فقد عرض فيه كذلك ، عند ذكره لمختلف المسائل ، التى أوردها فى تفسير الآيات إلى ذكر النظائر من الآيات والمتشابهات منها ، وبين ما اشتملت عليه من الدقائق الأسرار .

و « الجامع لأحكام القرآن » للإمام : أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، الذى اشتمل تفسيره أيضاً ، على ذكر الآيات المتشابهات فى القرآن ، وبخاصة آيات الأحكام ، التى أفاض فى ذكر ما اشتملت عليه من مختلف الأحكام الفقهية وآراء الفقهاء فيها .

وغير ذلك من نظائر هذه الأمهات والكتب التى أوردها مؤلفوها ببحث ودراسة ، بعض الموضوعات والقضايا القرآنية ، التى تنوعت فى ذكرها وبيانها الآيات ومنها :

كتاب — « التبيان فى أقسام القرآن » لابن القيم .

وكتاب — « الأمثال من الكتاب والسنة » للحكيم الترمذى .

وكتاب — « الناسخ والمنسوخ » لأبى جعفر النحاس .

وغير ذلك من نظائر هذه الكتب .

ومن المؤلفات الحديثة فى هذا التفسير .

« أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن » للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

و « التفسير الموضوعى » لأستاذنا الدكتور أحمد السيد الكومى بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد أحمد القاسم .

و « الفتوحات الربانية فى التفسير الموضوعى للآيات القرآنية للأستاذ الدكتور الحسينى أبو فرحة

و « الوحدة الموضوعية فى القرآن » الدكتور : محمد محمود حجازى .

و « القصص القرآنى » للأستاذ : عبد الكريم الخطيب .

و « الإعجاز فى دراسات السابقين : عبد الكريم الخطيب .

و « الربا فى القرآن الكريم » لأبى الأعلى المودودى .

و « البداية فى التفسير الموضوعى » للأستاذ الدكتور عبد الحى الفرماوى .

و « كتابنا « المنهج الموضوعى فى التفسير » .

و « الدراسات الموضوعية فى التفسير » .

وغير ذلك من المؤلفات الحديثة ، لبعض الزملاء ، التى ظهرت فى هذا التفسير الموضوعى الهام .

* * *

وجه الحاجة إلى أهمية هذا التفسير :

إن مما لاشك فيه ، أن تفسير آيات القرآن ، على هذا النحو الموضوعى الذى أشرنا إليه أمر غاية فى الأهمية ، وعظم الفائدة للأسباب التالية .

أولا : حاجة عموم الناس فى هذا العصر إلى عرض معانى آيات القرآن عرضا موضوعيا ، يتناول تبيان القضايا الكلية ، التى اشتملت عليها آيات القرآن ، تناولا كليا شاملا ، يهديهم إلى المعانى والغايات من أقصر الطرق وأيسرها ، دون الدخول بهم فى مباحث ومسائل تفصيلية ، هى من شأن المتخصصين من الدارسين للقرآن .

ثانيا : التبصرة بنماذج موضوعية ، من القرآن ، لتكون سبيلا يهتدى بها الدارسون فى معرفة ما اشتملت عليه آيات القرآن ، من مختلف الموضوعات الجامعة لأمور الدين والدنيا على السواء .

ثالثا : تبيان كيفية عرض معانى هذه الآيات ، المتعددة والمتنوعة ، والكشف عن وحدتها وعدم تباينها ، وتجلية مقاصدها ، وأهدافها الكلية .

رابعا : الرد على من فى قلوبهم زيغ من أعداء الإسلام ومقلديهم ، الذين يثيرون مايثيرون من المفتريات على آيات القرآن ، وبخاصة ماتنوع ذكره منها ؛ وتعددت مواضع ذكر آياته فى القرآن .

خامسا : الوقوف على معرفة كثير من الحقائق العلمية العامة ، المتعلقة بهذه الآيات ، كأسباب نزولها ، وناسخها ومنسوخها ، وعامها وخاصها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفصلها ، ونحو ذلك من الحقائق العامة ، التى لا يتأتى الفقه الصحيح لهذه الآيات إلا بها .

وأخيرا : فلقد كانت تلك هى خلاصة وجه الحاجة إلى أهمية دراسة هذا التفسير ، وجعله مادة دراسية لذوى الاختصاص ، تتجاوز حدود فائدتها المتخصصين منهم .

* * *

موضوع البحث والدراسة

« آية خلق أصل الإنسان فى القرآن »

« ودلالتها على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر »

أنت أنت أيها الإنسان ، من أعظم الآيات برهاناً على وجوب إيمانك بالله تعالى ، الذى خلقك ، وخلق هذا الكون كله ، بكل ما فيه ، من مختلف العوالم . المنظورة منها وغير المنظورة ، المرئية وغير المرئية . مما لا يحصيه ، ولا يحيط به علماً ، إلا الله ، الذى خلقه ، وأبدع صنعه ، وأحكم نظامه .

ومما يشهد لهذه الحقيقة ، ويقررها فى قلب كل ذى بصر ، من بنى الإنسان قوله عز شأنه :

« خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » الآية ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

وقوله : بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم *

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل *

لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير الآيات ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام .

إلى غير ذلك من مختلف الآيات التنزيلية ، الدالة على أن الله تعالى

هو وحده الخالق لمختلف هذه الآيات الكونية ، فى هذا الكون الفسيح ، ولا خالق لها غيره ، ولا رب لها سواه ، فلا طبيعية ولا صدفة ولا غيرهما مما يزعمه الزاعمون ، وضل به الضالون الغافلون .

وإن من اللافت للنظر ، الداعى إلى الإنتباه ، فى أول نجم قرآنى تلقاه رسول الله ﷺ من وحى ربه ، آية خلق الإنسان من علق ، من بين سائر عموم ما خلق الله وذلك حيث يقول :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق » الآية ١ ، ٢ من سورة العلق .

الأمر الذى يستوجب السؤال عن سر هذا التخصيص ، تخصيص ذكر خلق الإنسان دون غيره ، من بين سائر أنواع ما خلق الله تعالى فى هذا الكون الفسيح .

ولعل مرد هذا إنما يرجع إلى تنبيه بنى الإنسان ، إلى الدرس الأول من دروس البحث ، التى يجب البدء بها وإعمال الفكر فيها اهتداء إلى معرفة الرب الخالق المنعم المتفضل بنعمة الخلق والإيجاد ، والإستدلال بذلك على وجوب الإيمان به سبحانه .

فضلا عن قرب هذه الآية وعمقها ، الذى يستوعب جميع الدارسين المتخصصين ، وخاصة المتخصصين ، على امتداد الزمان والمكان ، ما بقيت هذه الحياة الدنيا ، وبقى الناس فيها يبحثون ويغوصون فى أعماق بحوثهم ودراساتهم ، يوماً بعد يوم ، بما يهديهم الله تعالى إليه ، من أسرار آية خلق أنفسهم ، والواقع العلمى خير شاهد على تلك الحقيقة .

وكان ذلك باعثاً من بواعث اختيار هذه الآية ، وتقديمها موضوعاً للبحث والدراسة ، حيث تتعدد فى ذكرها الآيات ، وتتنوع فى بيان أطوارها الأساليب والعبارات ، فى مختلف جملة من سور القرآن ، المكية منها والمدنية .

وإليك من هذه الآيات ، ما يتعلق منها بذكر خلق أصل الإنسان « آدم عليه السلام » باعتباره أصل جنس الإنسان .

آيات الخلق من تراب :

وفيها يقول تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب .. الآية ٢٠ من سورة الروم .

ويقول : « والله خلقكم من تراب » الآية ١١ من سورة فاطر .

ويقول : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

إلى غير ذلك من نظائر هذه الآيات ، التى اشتملت على ذكر الخلق من تراب .

آيات الخلق من طين :

وفيها يقول عز شأنه : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده » الآية ٢ من سورة الأنعام .

ويقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً » الآية ٦١ من سورة الإسراء .

ويقول : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » الآية ١٢ من سورة المؤمنون » .

إلى غير ذلك من الآيات التى نص فيها كذلك على ذكر الخلق من طين فى القرآن .

آيات الخلق من صلصال من حمأ مسنون :

وفيها يقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » .

ويقول : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون » الآيتان ٢٦ ، ٢٨ من سورة الحجر .

ويقول : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » الآية ١٤ من سورة الرحمن .

آيات التسوية ونفخ الروح :

وفيها يقول جل شأنه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » الآية ٢٩ من سورة الحجره .

ويقول : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » الآية ٧٢ من سورة ص .

الدراسة الموضوعية لهذه الآيات :

تهدينا هذه الآيات، حسب الترتيب الذى ذكرناه، إلى أن الله تعالى إنما خلق مادة أصل الإنسان -آدم عليه السلام- وبنيه من تراب هذه الأرض.

قال تعالى : «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى»

وأن هذه المادة ، كانت فى أول طور من أطوارها تراباً ، جافاً مفتتاً من جنس تراب هذه الأرض « وذراتها المختلفة ،وهو ما دلت عليه جميع الآيات التى اشتملت على ذكر الخلق من تراب .

وقبل أن نمضى مع هذه المادة الترابية، ومعرفة عناصرها ،وتقديرها، وما وراءها من الحكم والأسرار .

(١) الآية ٥٥ من سورة طه .

نتقدم بين يدى ذلك كلمة عن معنى مادة الخلق ، التى نصت على ذكرها الآيات ، يقيناً منا بأنه ما من مفردة من مفردات آيات القرآن ، إلا ولها معنى مستقل بها ، لا يؤديه إلا هذه المفردة بعينها ، وليس المرادف لها كما يقال .

وفى هذه المادة « خلق » يقول علماء اللغة .

الخلق معناه : إيجاد الشىء وإبداعه من غير أصل ولا احتذاء[1] .

يقول الراغب الأصفهانى: وليس الخلق الذى هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال فى الفصل بينه تعالى وبين غيره « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون »[2].

ويقول: وأما الذى يكون بالإستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره فى بعض الأحوال ، كعيسى عليه السلام حيث قال سبحانه : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى[3] .

وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم : «خلق الشىء يخلقه خلقا : أبدعه من غير أصل ولا احتذاء ، وذلك لا يكون إلا لله عز وجل، فهو الذى أبدع الأشياء ، على غير مثال بعد أن لم تكن »[4] .

ويقول الرازى فى تفسيره الكبير « الخلق عبارة عن الإيجاد والإنشاء، قال بذلك جمهور أهل السنة والجماعة .

واحتجوا عليه بقول المسلمين : لا خالق إلا الله ، ولو كان الخلق عبارة عن التقدير لما صح ذلك »[5].

(١) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزيادى مادة خلق .
(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .
(٣) الآية ١١٠ من سورة المائدة .
(٤) مادة خلق بمجمع اللغة العربية .
(٥) انظر ج ١ ص ١٠٦

أقول : وبهذا يعلم أن مادة « خلق » التى نصت على ذكرها الآيات ، إنما تدل على أن الله تعالى ، إنما أوجد أصل الإنسان ، آدم عليه السلام ، من مادة هذه الأرض ، وأبدع خلقه ، وأحسن صورته ، على غير مثال سبق ، بعد أن لم يكن ، آية دالة على قدرته سبحانه ، وبرهانا على عظيم حكمته ، وبالغ علمه وإرادته .

وهو ما يهدى إليه قوله : « ومن آياته أن خلقكم من تراب » .

وقد اقتضت حكمته سبحانه ، أن تكون مادته ، من مادة هذه الأرض حيث أراد أن يجعله خليفة فيها ، يقيم دينه وشرعه ، ويعمرها بالعلم وبالعمل وبالذرية .

ولتتغذى مادته من مادة هذه الأرض نفسها ، عن طريق ما يخرجه له منها ، من أنواع النبات ، والثمار ، والطيبات ، التى تتفق مع أصل عناصر مادته ولا تختلف عنها .

ومما ينبغى أن يعلم هنا . أن عناصر مادة الإنسان ، إنما هى عناصر مقدرة ، ومحددة ، بمقادير معينة ، لازيادة فيها ولا نقصان ، عما تقتضيه الحكمة التى يتأتى بها إحكام هذا الخلق ، وسلامة بنيته .

ولا يمكن أن يتأتى هـذا إلا ممن خلق هذه الأرض ، قبل خلق الإنسان ، وأحاط علمه بمكوناتها وذراتها ، ومختلف عناصرها ، عنصراً عنصراً وذرة ذرة وهو الله رب الأرض والسموات وما بينهما .

ومما يؤكد هـذه الحقيقة قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر »[1] .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

وقوله : « وخلق كل شىء فقدره تقديراً »[1] .

وعليه : فلا يفهم أن الخلق من تراب معناه ، أخذ كيسة من تراب الأرض هكذا كيفما كانت ، وعلى أى نحو كانت ، ومن أى مكان كانت لمنافاته للحكمة ، حكمة الله الخالق العليم .

ولسنا هنا فى هذا المقام ، فى حاجة إلى استقصاء عدد عناصر هذه المادة ، فذاك له مجال آخر ، ودراسة أخرى يعنى بها أهل هذا الاختصاص وإنما يعنينا أن نفقه معنى آيات الخلق من تراب ونظائرها فهما دقيقاً ، يهدينا إلى ما وراء هذه المادة من العلم ، والإرادة ، والقدرة ، علم الله الخالق ، وإرادته ، وقدرته ، وحكمته الخ ما تدل عليه من صفات كماله .

وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »[2] .

وعن أبى موسى عن النبى ﷺ أنه قال :

« إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض ، والأحمر ، والأسود ، وبين ذلك .

والخبيث ، والطيب ، والسهل ، والحزن ، وبين ذلك »[3] .

والحديث بهذا البيان ، والتبيين النبوى ، إنما يوضح ويؤكد لنا حقيقة ما ألمحنا إليه ، من تقدير مادة بنية الإنسان ، وأنها قبضة قبضها الحق وأخذها من جميع الأرض .

(١) الآية ٢ من سورة الفرقان .

(٢) رواه مسلم وأحمد عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) أخرجه الترمذى وأبو داود ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وفى النص على جميع الأرض ، دلالة واضحة ، على أن عناصر هذه المادة الترابية ، إنما هى عناصر مختلفة الأماكن ، والألوان والمعادن ، التى أودعها الله تعالى فى مجموع هذه الأرض ، حسب ما اقتضته إرادته وحكمته .

ولذا جاء بنو آدم على قدر هذه الأرض ، من حيث اختلاف الألوان والمعادن .

جاء منهم الأبيض ، لبياض أصل ذرات عنصره .

وجاء منهم الأحمر ، لحمرة أصل ذرات عنصره .

وجاء منهم الأسود ، لسواد أصل ذرات عنصره .

وجاء منهم من هو بين ذلك المذكور من أصول الألوان .

وجاء منهم الخبيث ، لخبث أصل معدن عنصره .

والطيب لطيب أصل عنصره .

والسهل اللين ، لسهولة أصل عنصره .

والحزن الشديد الوعر ، لشدة ووعورة أصل عنصره .

ومن هو بين ذلك المذكور من الصفات .

وتلك آية أخرى من آيات الله ، لايفقه أسرارها ولا ماوراها من الدقائق إلا العالمون وذلك حيث يقول عز ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »[1] .

(١) الآية ٢٢ من سورة الروم .

هذا ولما كان الناس جميعاً أبناء آدم وذريته ، خلقهم الله تعالى منه ومن زوجه — التى خلقها هى الأخرى منه ، كما أراد ، وكيف أراد ومتى أراد ، كما قال سبحانه :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء »[1] .

فإنهم بهذا الاعتبار من تراب ، لأن أصلهم جميعاً منه .

ولذا جاء الخطاب لهم فى قوله : « الله الذى خلقكم من تراب . .

وقوله : « ومن آياته أن خلقكم من تراب . .

ونظائر ذلك من الآيات التى جاء الخطاب فيها موجها لجماعة المخاطبين من بنى الإنسان وذريته .

يقول أبو حيان فى تفسيره ، ويجوز أن يكون المعنى باعتبار أن المنى ودم الطمث يتولدان من الأغذية ، والأغذية أصلها مستمد من تراب الأرض وعناصرها . .[2] .

أقول : وسواء كان المعنى بهذا الاعتبار أوذاك ، فلا خلاف حيث يئول المعنى فيهما إلى التراب وعناصره .

وقد جاءت هذه الآيات متنوعة البيان ، هادية فى كل نحو جاءت عليه لمعنى وحكمة ، اقتضتها حكمة من أنزل هذه الآيات وأحكمها ، وأحكم ترتيبها ، فى مختلف مواضع ذكرها .

(١) الآية ١ من سورة النساء .

(٢) البحر المحيط ج ٦ ص ٥٣٢ .

وإليك من ذلك مايهدى إلى تلك الحقيقة حيث يقول تعالى:

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب . »

فقد جاءت هذه الآية فى سورة الحج ، التى استهلت آياتها بالحديث عن تقوى الله تعالى ، وقاية للناس من هول يوم القيامة وزلزلة الساعة ، ومايعترى الناس فى هذا اليوم من الذهول والفزع ، الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ... الخ ما نصت على ذكره الآيات فى صدر هذه السورة .

ثم كان ما أعقب ذلك ، هو ذكر هذه الآية ، التى جاءت لترشد الناس إلى إمكان بعثهم فى الآخرة ، بماذكرته من الأدلة الحقيقية والمشاهدة لهم ، والدالة على أن من قدر على خلقهم من تراب أول مرة فإنه لا يعجزه أن يبعثهم يوم البعث والزلزلة من هذا التراب للعرض والحساب مرة ثانية .

خاصة وأنه بعث ، وليس خلقا جديدا ، كما نصت على ذلك الآية الكريمة ونظائرها من الآيات .

كما جاء قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » الآية .

ليجلى أمرا لابد وأن يتقرر فى القلوب معناه ، ويصحح اعتقادا باطلا يذهب إليه هؤلاء الضالون ، الذين يقولون ببنوة عيسى عليه السلام لله تعالى ، لكونه خلق من غير أب .

وهو أن مثل عيسى فى شأن خلقه من غير أب ، كشأن آدم ، خلقه الله من غير أب ولا أم — خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .

والآية فى هذا محكمة الارتباط ، مع سابقها ولاحقها من الآيات ، فى سورة آل عمران ، التى اشتمل حديث آياتها على نبأ من نبأ عيسى عليه السلام وقومه[1] .

---

(١) راجع الآيات فى صدر هذه السورة .

وهكذا نجد عند التتبع الدقيق لجميع النظائر من الآيات ، ما تهدى إليه كل منها من المعانى والحقائق المحكمة التى يجب فقهها ، ليتقرر فى القلوب مايجب أن يتقرر ، من حقيقة الإيمان بالله تعالى ، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه . واليقين بما أخبر به من البعث ، الذى لا ريب فيه ، فضلا عما تقتضيه هذه الأصول من الفروع ، التى لا يتأتى صحيح الإيمان واليقين إلا بها .

هذا وأما آيات الخلق من طين ، فإنها تهدى إلى طور الطين ، الذى حولت إليه مادة أصل الإنسان ، وأن هذه المادة بعد أن كانت ترابا جافا مفتتا ، فإن الله تعالى قد حولها إلى مادة رطبة طرية بالماء ، الذى صارت به طينا .

والطين هو التراب والماء المختلط[1] .

وهذا الماء الذى صارت به القبضة الترابية الجافة طينا ، إنما هو كذلك عنصر من الماء مقدر ، بمقدار معلوم ، لا زيادة فيه ولا نقصان عما تقتضيه تلك القبضة من كمية هذا العنصر المائى ، وإلا لما تحولت فى حال زيادة هذا العنصر أو نقصانه إلى طور الطين وصفته ، وهو مالا يمكن أن يتأتى ، لمنافاته لما اقتضته حكمة العزيز العليم .

ومع ماتخبرنا به هذه الآيات ، من الدلالة على طور الطين ، فإن كل آية منها بيان من الحق ، يهدى إلى معنى جديد ، من مختلف المعانى المتعلقة بهذه المادة وطورها الجديد ، وهو كذلك محكم وغاية فى الإحكام مع سابق آياته مع دلالته كذلك على حقيقة البعث وغيره من مقتضياته التى لا تخفى على الباحث المدقق ، المتعرض لطلب المناسبات بين الآيات من مصادرها ومظانها ، الدالة عليها والهادية إليها .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للاصفهانى مادة ط . ى . ن

« ولا يخفى عليك أنه لا تناقض بين آيات هذا الطور والذى قبله ، كما يزعم الزاعمون ، من أعداء القرآن ومقلديهم ، الذين يثيرون ما يثيرون من الأباطيل ، حول آيات القرآن ، وبخاصة ما تنوع ذكره منها ، وتفرقت مواضع ذكر آياته فى غير موضع من سور القرآن ، كهذه الآيات ونظائرها فى كتاب الله الحكيم . الذى أحكم الله آياته ، ثم فصلها من لدنه ، حسب ما اقتضته حكمته وعلمه الدقيق . وإحاطته بسابق الآيات ولاحقها ذلك أن الطين هو عين التراب والمتغير صفته .

ثم إنه سبحانه قد دعا إلى تدبر القرآن وإمعان النظر فيه فقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »(١) .

وقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »(٢)

وقال : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٣) .

ومادامت هذه هى حقيقته فكيف يتأتى التناقض بين آياته ، التى أعجزت أهل العربية وفرسان البيان .

« وأما الآيات التى اشتملت على ذكر الخلق من صلصال من حما مسنون فإنها تهدى إلى طور كل من الصلصال ، والحما المسنون ، الذى حولت إليه مادة الإنسان ، والحما : هو الطين الأسود(٤) .

والمسنون : المتغير ، ومنه قوله تعالى « لم يتسنه » أى لم يتغير ، وقوله : « فيها أنهار من ماء غير آسن » أى غير متغير .

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٢) الآية ١ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .
(٤) أنظر فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٢٩

والمعنى ، أن هذه المادة بعد أن أضيف إليها الماء صارت طينا ، فإنها تركت حسب تقدير الله المحكم حتى تخمرت وتغيرت ، لما اقتضته حكمة الحكيم العليم ، الذى لا يريد ولا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وقد صور تعالى تلك المادة المتخمرة ، وجعلها على هذه الصورة ، المشاهدة الدالة على تكريم الله تعالى لهذا البشر ، الذى أراد خلقه ، ليكون خليفة فى أرضه وخصه بخصائص التكريم ، التى تتنافى مع زعم أصحاب نظرية النشوء والارتقاء والداروينية ، الباطلة .

ثم تركت هذه المادة المصورة حتى صارت صلصالا حسب تقدير الله المحكم أيضا .

والصلصال : هو الطين اليابس ، الذى يسمع له صلصلة — أى صوت إذا نقر(١) .

والمعنى : أن هذه المادة المصورة قد جفت ويبست بعد أن كانت رطبة رخوة . وقد شبهها سبحانه وتعالى بعد تمام جفافها وصلابتها بالفخار المحروق بالنار كما يرشد إلى ذلك قوله ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، دلالة على ما صارت إليه هذه المادة بعد تصويرها وجفافها التام مما كان عالقا بها من الرطوبة لما اقتضته حكمته سبحانه من تهيئة هذه المادة لحصول مراده ومباشرتها لما سيكون من مقدراته .

وبهذا فلا تباين أيضا بين آيات هذين الطورين ، وبين ما سبق من آيات الطورين السابقين ، إذا المتغير هو حال المادة وصفتها وهيأتها ، أما حقيقتها وجوهرها فهو هو « فليبصر ذلك أولئك الضالون المضلون » .

ومن يعمل فى فلكهم .

ولهذا يقول الألوسى فى تفسيره . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب . جعله طيناً ، ثم حما مسنونا ، ثم صلصالا ، فلا تنافى بين الآية

(١) أنظر الصاوى على الجلالين جـ ٤ ص ١٤٦

الناطقة بأحدهما وبين ما نطق بأحد الآخرين[1]. وهذا هو معتقد أهل الحق.

« وأما آيات التسوية ونفخ الروح فى مادة أصل الإنسان فإنها تهدى إلى تمام مراحل أطوار هذه المادة.

ذلك أن معنى قوله: «فإذا سويته» أى سويت خلقه، وعدلت صورته الإنسانية وكملت أجزاءه.

«ونفخت فيه من روحى» أى أفضت فيه من روحى، الروح الذى يحيا به، وتصير مادته حية نابضة بالحياة، والحس والحركة والإدراك، والسمع والإبصار والعلم وغير ذلك من تمام نعمة الحياة الطيبة ومقتضياتها التى فطره الله عليها..

«فقعوا له ساجدين» أى فبادروا بالوقوع والسجود له، وليس مجرد الإنحناء كما قيل، تحية وتكريماً لا سجود عبادة، وقد أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء»[2].

وهنا يلزم أن يعلم وجوب تفويض العلم إلى الله تعالى بحقيقة كيفية نفخه من روحه فى مادة الإنسان.

وكذلك وجوب تفويض العلم إليه تعالى بحقيقة الروح الذى أفاضه من روحه فى هذه المادة، إذ أن ذلك سر استأثر الله تعالى بعلمه، لم يطلع عليه أحداً من خلقه، ومما يهدى إلى تلك الحقيقة قوله.

ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى... أى من شأنه ومما استأثر بعلمه، يقول الشوكانى:

«وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته، وإيضاح حقيقته أبلغ زجر، ويردعهم أعظم ردع».

(١) أنظر روح المعانى جـ ٢٧ ص ١٠٥

(٢) أنظر فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٣٠

ويقول:

وقد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول.

فانظر إلى هذا الفضول الفارغ، والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه، ولم يطلع عليه أنبياءه، ولا أذن لهم بالسؤال عنه، ولا البحث عن حقيقته، فضلا عن أممهم المقتدين بهم.

فياالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد، الذى لم يبلغه ولا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه»[1].

أقول:

وبهذا فليوقن الإنسان بأن سر حياة مادته فى هذه الحياة الدنيا، مرهون بهذا السر الذى استأثر تعالى بعلم حقيقته ووقته يفيضه متى يشاء، ويقبضه متى يشاء، حسب تقديره الموقوت، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

قال تعالى: فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين[2].

وأنى لهم أن يرجعوها وهم بكل علومهم ومعارفهم، التى أوتوها

(١) أنظر الجزء المذكور السابق ص ٢٥٤

(٢) الآيات ٨٣ — ٨٧ من سورة الواقعة

لم يعرفوا عنها شيئاً غير اسمها . الذى يرددونه على ألسنتهم ، ويروحون ويغدون به فى هذه الحياة ولا يعرفون عن حقيقته شيئاً .

وتلك حكمة الله البالغة، وإرادته النافذة، حتى تمضى هذه الحياة، ويعلم الناس كل الناس أن حياة مادة الإنسان وغيره ليست تحت سلطان أحد، وليست فى جمع العناصر ، ولا فى معرفة صفاتها ، وأنه مهما أوتى الإنسان من العلوم والمعارف فهى لا تعد وهذه المادة الترابية ، أما ماوراءها من أمر حياتها ، وموتها فأمره وعلمه عند ربى .

* * *

تلك هى خلاصة معانى هذه الآيات فى وحدتها الموضوعية المتعانقة التى أرشد تعالى فيها إلى بيان مادة أصل الإنسان ، وأطوار هذه المادة ، وماتهدى إليه هذه الآيات من مختلف الحقائق ، التى يجب فقهها ، ومتابعة درسها على امتداد هذه الحياة ، لما وراءها من مزيد الحكم والأسرار عن آية خلق أصل الإنسان ، الهادية إلى وجوب الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر للموقنين المستبصرين .

قال تعالى «وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون»(١)

أما حديث آيات القرآن عن خلق ذرية آدم عليه السلام ، وأطوار خلقهم ، وتبيان معانيها ودقائقها العلمية فله لقاء آخر يضمنا بإذن الله تعالى ، أسأل الله أن يضمنا دائماً حول مائدة القرآن الكريم . إنه سبحانه سميع مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

(١) الآية ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات